اكتشاف الإسلام

هل نكتشف يوماً ما أن هناك إسلاماً مدفوناً تحت إسلامنا اليوم؟! مجرد سؤال بسيط سهل وقاتل الله العجلة! فكثير من الناس قد يستعجلون قائلين: أنت تكفر المسلمين، وهؤلاء المستعجلون من أشد الناس تكفيراً للمسلمين ولا يعرفون موانع التكفير وضوابطه.

نعيد السؤال: هل من المعقول أن يكون هناك إسلام إلهياً قرآنياً محمدياً يختلف عن إسلامنا وسنكتشفه يوماً ونتحسر في وقت لا ينفعنا فيه التحسر؟!

الذي يمنع من مجرد التفكير في السؤال فضلاً عن البحث عن الجواب الصحيح ليس العلم ولا العقل؛ إنه الجهل والرضا عن الذات.

اكتشاف الإسلام يمرّ باكتشاف القرآن، فإذا اكتشفنا القرآن اكتشفنا الإسلام، والمانع من اكتشاف هذا هو المانع من اكتشاف ذاك: وهو الكبر والجهل.

بالله عليكم ماذا ينفعنا كبرنا إذا صحونا من غفلتنا في يوم ما وقلنا: (الآن أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون)؟!

سأكتب لاحقا في موضوع اكتشاف القرآن الكريم لا أزعم أنه من عندي وإنما معظمه مستفاد من آخرين سبقوا ولكن هناك مبادئ لابد من الاتفاق عليها. وهذه المبادئ لابد أن نتفق عليها لأنها ستكون نصوصاً قرآنية فقط. لن أزيد عليها كلمة ولا أنقص وستكتشفون أننا واقعاً لا نؤمن بها في الغالب!

المبدأ الأول: لا اختلاف في القرآن لقوله تعالى: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)

هذا مبدأ يجب الإيمان به واقعاً، ولا يكفي القول فقط مع الاعتقاد الباطني بأن القرآن يخالف بعضه بعضاً ويضرب بعضه بعضاً، والواقع أن الاعتقاد باختلافه خلاف الإظهار القولي. فهل يبحث الله عن منافقين يؤمنون بقوله ظاهراً ويكذبونه باطناً وواقعاً؟! الله غني عن إيمان كهذا فالله يريد الصدق لا النفاق وإرضاءه بالقول.

البعض يقول: ولكن الواقع أن في القرآن اختلاف فماذا نفعل؟!

الجواب: إذا كنت تؤمن بأن في القرآن اختلافاً فاكفر علناً فالله لا يحب النفاق. وإذا كنت تؤمن بمبدأ عدم الاختلاف في القرآن وإنما تظهر لك آيات تبدو مختلفة مع يقينك بأن الاختلاف في فهمك لا في القرآن، فابحث عن المعنى. واعلم أن مبدأ (عدم الاختلاف) يحتاج الإيمان به للتدبر لقوله: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً).

وكأن الله يقول لك: إذا عصيتني في ترك التدبر؛ فسترى أن هناك اختلافاً كثيراً في الكتاب وهذا كفر غامض تحمله في قلبك نتيجة تهاونك بالتدبر.

وحال المسلمين اليوم لا تخفى على أحد فهدا يستدل بآيات ويعادي آيات أخرى! وكأن هناك تناقضاً بين هذه وتلك وهذا ضرب للقرآن بعضه ببعض وهو كفر. إذّن فالواجب الإيمان بقوة بهذا المبدأ: (عدم الاختلاف في القرآن) ثم بعد ذلك البحث عن منهج ينقذك من الاعتقاد الداخلي بتناقض واختلاف القرآن.

ونصيحة من أخ لكم: تجنبوا التفاسير والأحاديث ما أمكن، فالتفاسير تأخذ من الأحاديث والآراء العجلة. حاولوا أن تتدبروا القرآن من الداخل.

والإيمان بعدم وجود أدنى اختلاف في القرآن الكريم يلزم منه انعدام ما هو أبلغ من الاختلاف، كالتناقض لأن الاختلاف أعمّ من التناقض.

والإيمان بهذا المبدأ يدفع لتعلم القرآن وتدبره بجدية حتى يعلم المسلم أن الله صادق تماماً في هذه الآية، بخلاف من يظنون أنه غير صادق!

إن الإيمان الظاهري بصدق الله مع الاعتقاد الباطني بخلاف ذلك لا ينفع عند الله؛ حتى ولو كان المعتقد إماماً متبوعاً؛ وسيحشر مع الذين كفروا، وسيكون أول كفره هو كفره بهذه الآية، وأن الله غير صادق فيها! نعوذ بالله من ذلك، فالكفر بالمعنى القرآني لا يقتصر على الجحود وإنما الشك في صدق الله كفر أيضا، فلذلك لا يعلم أنه كافر إلا أثناء الموت أو بعده كما قال تعالى: (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ..... وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين)، فهم عرفوا كفرهم ساعة الوفاة. فالكفر له معنى أعلى وهو: التغطية، فمن اعتقد ولو باطناً بأن في القرآن اختلافاً وتناقضاً فقد: (غطى الآية) وكفر باطناً وإن لم يتلفظ بذلك.

نعم لا يكفر من جمع بين ماظنه مختلفا جمعا ظنه مخرجا من الاختلاف والتناقض أو اتهم نفسه بالجهل مع تأكيده على التصديق بالآية تصديقا صارما، إنما يكفر باطناً من ظن أو اعتقد أن الله تورط في هذه الآية أو تلك! وأن الصواب ليس كما قال الله! فالله لا يقبل أن يوصف بالصدق مجاملة!

وكم من المسلمين من يمتعض من بعض القرآن لظنه أن هذا البعض غير علمي! ولكنه لا يتكلم بهذا لظنه أن المحاسبة لا تتم على ما تضمره القلوب! فهو يأخذ راحته في التكذيب القلبي! مع قوله تعالى (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) وهذه الآية أيضا لا يصدقونها لأنهم زعموا أنها منسوخة بقوله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وهذا غير صحيح؛ فالآيتان محكمتان؛ والوسواس القهري يختلف عن التكذيب. إذّن فالمبدأ الأول من المبادئ التي تعيد لنا اكتشاف القرآن؛ ومنه يتم اكتشاف الإسلام؛ هو تصديق الله بأنه لا اختلاف ولا تناقض في القرآن.

المبدأ الثاني: من مبادئ اكتشاف القرآن -الذي هو اكتشاف الإسلام نفسه- هو: أن الإنسان قاصر عن الإحاطة بالقرآن؛ مهما بلغ علمه ومعرفته، وهذا يعني أهمية التواضع والهدوء والنفس الطويل في التدبر فالقرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق ولا تنقضي عجائبه ولا يتم كشف الظلمات إلا به.

وهذا لا يعني ما يفعله الشيطان بأتباعه الذين يهجرون القرآن بحجة أنه لا يستطيع فهمه أحد، كلا ستجد منه ما يكفيك كما تجد من الشمس ما يكفيك.

المبدأ الثالث: التغاير عن كلام المخلوقين، فلا يجوز فهم كلام الله بسذاجة واستخفاف وكأنك تقرأ فتوى لأحد العلماء، كلا، خذه بجدية وتصديق تام.

المبدأ الرابع: مبدأ أن القرآن مبين بذاته؛ نور بذاته؛ كاشف عن غيره؛ تبيان لكل شيء علمنا ذلك منه أو جهلناه، إنما التصديق دون تحريف وتأويل.

فمثلا عندما يقول الله: (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) يجب أن نؤمن بذلك حتى لو جهلنا ذلك، وكذلك قوله (ما فرطنا في الكتاب من شيء).

والآن لو يأتينا أحدهم (بفلاش) ويقول هذا فيه كل الكتب العربية لصدقناه ولو جهلنا ذلك، فلماذا لا نصدق الله عندما يقول (تبيانا لكل شيء)؟!

إن كبر الإنسان وعجلته وحبه الفخر يؤدي به إلى العجلة وقياس علم الله بعلمه المحدود، فمادام أنه لا يعرف ذلك فمعنى هذا أن الآية غير صادقة، والواجب أن يقول: هو كما قال الله تبيانا لكل شيء، لكنني أجهل ذلك ولكني أؤمن بأن الله أصدق القائلين، وسأترك هذا لغيري. هذا هو الإيمان.

أما أن ينحرج الشخص من هذه الآيات، ويتكلف تأويلها وتقليلها وتقييد إطلاقها الخ... فقد جعل نفسه إماماً لله وكأنه يريد أن يعلمه كيف يتكلم.

قُتل ما أكفره، وما أعجله، وما أجهله، ولو أنه كان مؤمناً حقاً ومتواضعا لقال : هو كما قال الله ولكنني أجهل ذلك، هكذا بكل بساطة.

سلسلة المبادئ هذه التي سنعيد فيها اكتشاف القرآن الكريم ومعرفة ما عظمه وأهملناه، وما أهمله وعظمناه، ثم بعد اكتشاف القرآن غضاً كما نزل من تعظيم ما عظيم وتصغير ما صغر سنكتشف الإسلام الأول الذي أراده الله وماذا يختلف عن إسلامنا اليوم.

وحتى لا يسارع البعض ويقول : لا فرق. أذكره بعبادة التفكر في الخلق المأمور بها في القرآن وبكثافة، أين هي في إسلامنا اليوم؟ وما حجمها؟ هذا مثال فقط.

إذًا فلا تستعجلوا والعجلة من صفات الإنسان المذمومة في القرآن (وكان الإنسان عجولاً)، والعجلة من عوائق المعرفة لأن المعرفة لا تأتي إلا بالهدوء.

العجلة من صفات المتكبرين لأنه يستنكف أن يبقى جاهلاً لمسألة ولو للحظة فيخترع جوابا سريعا يتباهى به، أما الأناة والتروي فهي من صفات المتواضعين.

حسن بن فرحان المالكي

١٤٣٣/٨/٢٧ هـ - ٢٠١٢/٧/١٦ م